أمارابك: *مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا* www.amarabac.com
المجلد الخامس، العدد الثاني عشر (٢٠١٤). ص ص ١٧-٣٦

القدس في الكتابة الشعرية التناصية عند سميح القاسم

نادر قاسم [*]

الملخص: تهدف هذه الدراسة الى تسليط الضوء على صورة القدس في المشهد الشعري عند سميح القاسم من خلال تواصله بالتراث الديني والتاريخي والأدبي والأسطوري والشعبي فكان هذا التواصل في حد ذاته مقاومة لإبراز الهوية وتأكيد الذات، وهذا يكشف الحضور الكبير للقدس في أعمال سميح القاسم الشعرية حيث خصها في كثير من دواوينه، فأينما ذكر التاريخ القديم أو الحديث برزت القدس وأينما ذهب الى القرآن أو التوراة أو القرآن أو الحديث الشريف تجلت القدس وأينما حضرت الأسطورة والتراث الشعبي حضرت القدس بقوة، وهكذا عبر سميح القاسم عن علاقته الروحية والتاريخية والواقعية بها، فأعاد صياغتها وفق رؤى جديدة اتخذت صورا مثالية وانسانية، وتجاوز المساحة الجغرافية المجردة للأماكن الى كونها تشكيلا روحيا ووجدانيا يزخر بالحركة والحياة.

الكلمات المفتاحية: *الكتابة الشعرية، التناصية، سميح القاسم.*

Jerusalem in writing poetry when Altnasih Samih al-Qasim

Nader Qassim [*]

Abstract: *This study aims to shed light on the image of Jerusalem in the poetic scene of Sameeh Al-Qasem through his communication with the religious, historical, literary, mythical and folk heritage. This communication was in itself a resistance to highlight the identity and emphasize the personality. This indicates the great presence of Jerusalem in Sameeh Al-Qasem's poetry who included it in many of his poetry collections. Whenever ancient or modern history are mentioned Jerusalem comes to the scene, and whenever the poet mentions the Holy Quran, the Torah or the Hadith, Jerusalem is emphasized. Likewise, whenever myth and folk heritage comes under the light, Jerusalem is also mentioned in a strong manner. In such a manner, Sameeh Al-Qasem expressed his spiritual, historical and realistic relationship with Jerusalem and reshaped it according to new horizons that took the form of perfect and human images; he went beyond the geographical space of places and gave them a much spiritual and emotional sense that is full of movement and life.*

Key words: writing poetry, Altnasih, Samih al-Qasim.

[*] جامعة النجاح، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، nadq_2010@hotmail.com

تقديم

ترتبط القدس في الذاكرة الجماعية العربية عامة والفلسطينية خاصة بعدد من الدلالات والإيحاءات المشرقة، فهي مدينة تاريخية تعبق بالحضارة والتراث الأصيل، وتشع من مآذنها وكنائسها قبسات روحية، تلقي بظلالها على هذا المكان، وتجعله بقعة ذات بعد ديني وروحي، وتنطلق هذه البقعة الجغرافية من حدودها المكانية لتتسع وتمتد فتصبح مكاناً مميزاً في وجدان الإنسان العربي، فهي الأرضية الصلبة التي يقف عليها المواطن الفلسطيني ليثبت وجوده وكيانه أمام قوة غاشمة تصر على سحقه وإلغاء وجوده.

نالت القدس بعد تأسيسها منذ ثلاث آلاف سنة أو يزيد على يد اليبوسيين العرب مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، وحظيت من التشريف والتكريم ما لم تحظ به أية مدينة أخرى، كما نالت من المحن والأهوال بعد أن عبثت بها أيدي الخراب والدمار ما حفر في تضاريسها عميقاً، وبقيت آثارها شاهداً عليه إلى يومنا هذا (١).

لقد صوّر الشعراء الفلسطينيون الأحداث التي مرت بها القدس، واستجلوا تاريخها الطويل في قصائدهم الشعرية، وجعلوا منها علامات حية تسكن فينا وتعيش بين جوانحنا وعالمنا الداخلي والروحي مع كل نبضة قلب أو لمعة فكر أو خلجة عرق، وبذلك امتلأ كيانهم بحضور الذكرى واستجلاء الذاكرة، فأقسموا بحياتهم وارتباطهم الروحي بها غير القابل للحل أو النقض أو النسيان وتساءلوا عن أسرار قدسيتها وقرأوا تجليات حجارتها وشفافيتها الناطقة بعبق التاريخ العربي الإسلامي، مما جعلوا منها أماً وحبيبة تصبو إلى مرآها، وتشّنف الآذان بسماع صوتها ورؤية سحر عيونها، وعشقوها عشقاً صوفياً يرتل الكون لحن حبها الأبدي في علاقة متينة الأواصر لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب، وتمنوا أن تدفن رفاتهم تحت كرمة من كرومها، مما يشكل عودة إلى رحم الأم ورمزاً أسطورياً دالاً على التجدد والانبعاث من طيب ترابها المقدّس، كما جعلوا منها الفردوس الأندلسي المفقود الذي تحن إليه القلوب، وتئن من عذابه الباهر النفوس (٢).

بناء على ما سبق، استحضر سميح القاسم مدينة القدس للتعبير عن علاقته الروحية والتاريخية والواقعية بها، فأعاد صياغتها وفق رؤية جديدة اتخذت صوراً مثالية وإنسانية، فاستنطق تاريخها واشراقها النوراني بالأديان، لهذا جاءت القدس حاضرة في الكتابة التناصية التاريخية والدينية والأدبية والشعبية والأسطورية عند سميح قاسم.

القدس في الكتابة الشعرية التناصية

للقدس مكانة خاصة لدى المسلمين، فهي اولى القبلتين وثالث المسجدين الشريفين اللذين تشد إليهما الرحال، وإليها أسري بالرسول الكريم عليه السلام، ومنها عرج إلى السماء، وفيها صلى بالملائكة، قال تعالى "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آيتنا إنه هو السميع البصير" (٣)

يحاول الشاعر أن يفتح نافذة أخرى في قصيدة (نافذة أخرى) لقدّاس البشائر وحجارة الإنتفاضة الصاعدة من موته إلى سدرة الميلاد المهيبة، وأخرى على قلبه وشعبه ويتمنى أن يتحول إلى حجر يقذف به وجه الإحتلال، وهو مشبع بالسجن والمنفى والدم الترابي والصلاة في محراب القدس ومعبد الروح، التي يصبح المشي فيها عبادة، وهذا في حد ذاته خطرة نفسانية ترد على القلب ملفعة بالحقائق الروحانية، فضلاً عن حس المقاومة المقترن بالحجر والبقاء في الحضرة الأحدية القدسية (٤)، يقول:

دمي فك بسحر الحب لغزاً
من شهوة الزيت وأحزان المعاصر
مثقلا بالفرح الباكي أحوب السجن
مأخوذاً بأسرار الولادة
مشبعاً بالدم والعطر الترابي أصليّ
للمواليد من الموت
لأسراب الحساسين
وأصلي وأصليّ
جسدي المعبد
والمشي على أرصفة القدس عبادة. (٥)

يجعل سميح القاسم في قصيدته (لماذا؟) من القدس ومآذنها أماً لا تضاهيها أمٌ في الوجود، ولا تنازعها مدينة في اكتمال آدمية الإنسان منذ قرون سحيقة، ثم سرعان ما تتحول إلى امرأة مكتملة الأنوثة ومعشوقة تنظر العيون — الوجوه إلى بهائها، وتصغي الآذان خلف النوافذ إلى مناجياته الولهانة والتغزل في أسرار جمالها الفتان، كما تاه في بحار عينيها وسحر مقلتيها، فغاب عمن حوله ولم يعد يرى في نفسه غيرها، أو ينشغل بأحد سواها، ثم يصوّر لهو العاشقين معاً برشق الماء واصطياد الأسماك التي يعيدانها مرة أخرى إلى الماء لتحكي قصة حبهما إلى سكان الأعماق، داعياً الكائنات الحية إلى مباركة حبه الذي أنتج طفلة سمّاها هاجر، وطفلاً سمّاه وطن، يقول:-

أيها الحي الباقي
بارك قيامتنا، بارك وجدنا المقيم كروحك
خذ بأيدينا المشتعلة بالحياة
لنشهد ميلادنا من مآذن القدس وجرسيّاتها
وفي أعالي صبانا الزاخر بك (٦)

إن ترتيل الكون قصة الحب الأبدي على هذه الأرض في فضاء سمائها، وتضاريس أرضها، وأعماق بحارها، يمتزج بنداء الذات الشاعرة إلى الحي الباقي سبحانه وتعالى أن يبارك حبهما، ويأخذ بأيديهما نحو اشتعال الحياة، وتوقد الرغبة الجامحة في الميلاد الذي يحقق وجودها الإنساني وهويتها الوطنية المنبثقة من مآذن المساجد وأجراس الكنائس، لتشكل ملاذاً للوجود الفلسطيني الفاعل في العالم، وهي بهذا المعنى تعد من أهم المقومات الجوهرية للكينونة الفلسطينية الحضارية والمحافظة عليها من الذبول، لما تحمل في ذاتها وفي قلوب المؤمنين بها من أنوار بهيّة، ودلالات قدسية (٧)

وهكذا تتجاوز التجربة الشعرية الأبعاد الذاتية بحكم أدبيتها إلى أبعاد جماعية، وهي بهذا المعنى ليست رومانسية صرفة، لأن الرومانسية انسحاب من الخارج إلى الداخل (٨) ففي حين يكون الانفعال الواقعي معيشاً بواسطة الأنا، باعتباره واحداً من حالاته الباطنية، فإن الانفعال الشعري يكون محسوباً على الشيء....ويكون العالم الخارجي السبب الخارجي لهذا التحويل (٩) ويتضح هذا في سياق القصيدة من خلال قوله عمن يريد التفريق بينه وبين القدس حبّه المقدس، "تتشابك الأيدي القاسية بين جسدينا" أو قوله:-

أيتها المتبددة في زحام الأرض
لماذا كنت بعد كل هذا العدم
لماذا تشكلّت بعد كل هذا الهلام
ولماذا أفقدك بعد كل هذا الفقد (١٠)

هكذا تنصهر مأساة الوطن - القدس في مأساة حبها المقدّس ودلالاتها الطاهرة، حيث تفيق الذات الشاعرة من حلمها الرومانسي لترى الواقع العيني الفاجع، بعد أن ألقى عليها الحاضر ظلال التعتيم.

يوازن سميح القاسم بين حال القدس قبل الاحتلال وبعده، فالمدينة كانت شامخة بمقدساتها وأبنائها، ولكن الاحتلال سلبها هذا التميز، وأسبغ عليها طابعاً من الذل والهوان يقول القاسم:-

وذات يوم شيد الأقصى
وعش الفقراء كل ليلة
يا رفاقي، ورأيته
ذات يوم فبكيته
كان يستعطي لدى بوابة الأقصى
وفي عينيه أدركت المذلة (١١)

أدرك القاسم البعد الديني في تحريك المشاعر الوطنية، لذلك استخدم لفظ الأقصى لما يحمل من دلالة روحية تموج بإشعاعات بين القداسة والطهارة، وقد تجاوز لفظ الأقصى في هذا المقطع حدوده المكانية الضيقة، وامتدّ ليشمل مدينة القدس، وقد وفق القاسم في ربط لفظ الأقصى بالمذلة، فهو يقرر بذلك الواقع الأليم الذي تعيشه هذه المدينة في عهد الاحتلال، فيؤدي ذلك إلى تحفيز همم الأمّة وإثارتها، لتخليصها من أسر العدو، وردها إلى أصحابها الشرعيين، وقد كانت الكلمة المحور في هذا المقطع (المذلة) وهي المفتاح لعملية تغيير واقع هذه المدينة.

وفي مدينة القدس تتوحد المشاعر الدينية بين المسلمين والمسيحيين، وتتوثق الروابط بينهما، فالهدف مشترك وهو تحريرها من أسر الاحتلال، يقول سميح:-

الفارس المسلم يستريح
تحضنه زيتونة
والسيد المسيح
يطل من أيقونة (١٢)

وبالرغم من أن هذا المقطع لم يذكر فيه اسم مدينة القدس، إلا أن القصيدة التي أخذ منها عنوانها (فسيفساء على قبة الصخرة) ظهرت القدس من خلال المحبة والتسامح الديني، مدينة تنتظر من أبنائها العرب تحريرها، وقد كان القاسم واعياً عندما جمع بين الموروث الديني الإسلامي والمسيحي، ذلك من خلال الإشارة إلى الألفاظ:- (المسلم، زيتونة، المسيح، أيقونة) ليؤكد التلاحم بين أبناء هاتين الديانتين في هذه المدينة.

لقد استوحى سميح القاسم عبارات ومعاني من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم خاصة بمدينة القدس، إضافة إلى قصص الأنبياء ليكشف اللفظ ويمحص المعنى الدال على مكانة هذه المدينة وقدسيتها، ولتكون ظلال المعاني أكثر إضاءة وأشد عمقاً على المدلول، فتعطي المتلقي دلالات مشعة ومتشعبة للصورة، وهذا -مما لا شك - يثريها، يقول سميح:-

الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر
ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه
قولي: ليكن نور، فيكون نور (١٣)

في النص التوراتي (المزمور١٣٧) "ليكن نور، فيكون نور" أما سميح القاسم -هنا - فيجعل من المخاطبة (أنت) ذات مكانة مقدسة، بل أكثر من هذا، فقد منحها صفة الخلق بقوله "ليكن نور" فيكون نور (١٤)

وعندما يقول القاسم:

باسمك أنت كأنك كنت دائماً (١٥)

نستحضر في أذهاننا أن القدس ظلت على مرّ العصور إحدى البؤر المركزية للوعي الديني اليهودي حتى تظهر الإشارة إلى استعادة القدس في الصلاة الأساسية في الديانة اليهودية (شمونا أسراي) التي تتلى ثلاث مرات يومياً، كذلك فإن العبارة الشهيرة التي تقول " إن نسيتك يا أورشليم ثنسى يميني "، لهي جزء من تلاوة الشكر التي يرددها اليهود بعد تناول الوجبات خلال أيام الأسبوع، حيث جاء سميح القاسم ليؤكد هذه الدلالات في قصيدته " إذا نسيت يا قدس ":-

لتنسني يميني
إذا نسيتُ القدس
ولتخلد على جبيني
وصمة عصر الموت والجنون
ولتنسى وجهي الشمس
ولينعب البوم على صوتي وأطفالي وزيزفوني
إذا نسيت القدس (١٦)

وإن كان اليهود يستمدون شرعيته مطالبهم بالمدينة المقدّسة من تعاليمهم المستوحاة من التوراة فإن هذه التوراة ذاتها تقول:- "من أجل أنّ ملك يهوذا أساء أكثر من جميع الذي عمله الأموريّون الذين قبله، ها أنذا أجلب شراً على أورشليم ويهودا، وأمسح أورشليم كما يمسح الواحد الصحن ".

فأي قداسة وأي وعد الهي الذي يبقى بعد أن مسح الرب (أورشليم) ويرفضها ولو كان الهيكل والقدس مقدسين لدى اليهود - كما يدعون — لما عبد الشعب الإسرائيلي آلهة أخرى، ناسين الرب وهيكله، وناعتين بيت المقدس والهيكل بأبشع الأوصاف، وهو ما يتضح في توراتهم وأسفارهم (١٧) فاستخدام القاسم لهذه العبارات التوراتية وتوظيفه له إنما يحمل دلالات سياسية تأتي في سياق استغلال الشاعر للرموز الدينية وتوظيفها، وكأني بشاعرنا يريد أن يقول لهؤلاء الصهاينة، من فمك أدينك. (١٨)

لقد استلهم سميح القاسم في قصيدته "إذا نسيت يا قدس" الملفوظ الديني والوجداني للنبي داوود عليه السلام، إن توظيفه لصيغة واحدة من صيغ القسم المقترنة بالقدس بتكرارها مرات عدة في سياق أبيات القصيدة يحمل دلالات نحوية وعاطفية، لأن القسم في حقيقته " يمين يقسم به الحالف ليؤكد به شيئاً يخبر عنه من إيجاب أو جحد " (١٩) وهذا من النوع المضمر التي تدل عليه اللام المقترنة بالفعل المضارع ويقدر ب " أقسم أو بالله " وهذا بدوره يشير إلى إشهاد الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وما يخفى بأنهما يرتبطان بالمكان - القدس إرتباطاً روحياً غير قابل للحل أو النقد أو النسيان، وأن القدس تشكل عالماً خاصاً وذاكرة فردية تتحول بحكم أدبيتها إلى ذاكرة جمعية ترتوي النفوس والأرواح من عذوبتها إلى حد السكر (٢٠).

وظف سميح القاسم كثيراً من معاني الإنجيل وألفاظه في شعره، ومرد ذلك إلى الإنفتاح الثقافي الذي يعيشه الفرد داخل حدود فلسطين عام ١٩٤٨، فنجده يستخدم ألفاظاً مثل قديس بطرس، ويضمن المعاني المسيحية، فيقول:-

يلهون بصلبك في الميدان
يلهون بصلبي في الميدان
وأفيق على ضربة الإيمان (٢١)

أما في القرآن الكريم، فقد وظف القاسم ألفاظاً قرآنية "تناصات جزئية أو إشارية" لتجسيد صوراً شعرية لإضفائها على الصيغة مزيداً من الواقعية، وجعلها أشد أثراً وأعمق نفوذاً، حيث تصبغ المعنى بدلالة تتسم بالوضوح والدقة، وعند استقرائنا للمجموعة الكاملة يتبين لنا أن سميح القاسم يقتبس من القرآن ألفاظاً ومعاني آيات كاملة، فهو يصبغ شعره بالألوان والأصباغ القرآنية عمداً وتلقائية لاثراء الصور الشعرية التي تعطي دلالات وايحاءات مغايرة لمعناها الأصلي (٢٢).

ما سقر، لا بد أن أمضي
عذابي وردة وفمي حجر (٢٣)

القدس قبلة المسلمين الأولى، تتوحد معها المدن الفلسطينية، وتشاركها آلامها وأحزانها، فالمأساة واحدة والقاسم المشترك هو الاحتلال.

ليبك لنا وعلينا ومنا وفينا
ليبك مغني الرحيل
لتبك على قبلة القدس دالية من كروم الخليل.(٢٤)

ولأجل مدينة القدس، يتحمل الفلسطيني كل الآلام والعذاب، ويقدم حياته من أجل تحريرها، فموته خطوة أولى نحو البعث، بعث الحياة في الوطن، وهي تدعوه إلى المزيد من التضحيات حتى تكتمل الحرية في جميع أجزاء الوطن:-

أعدوا صليبي
على شرفة الحب في آخر الموت يطلع وجه حبيبي
ويسطع وجه حبيبي على قبة القدس في مشرق الشمس
موتي وبعثي
وموتي ووجه حبيبي (٢٥)

تتمدد القدس، هذه البقعة المقدّسة لتشكل الوطن الجريح، ولتكون البوصلة التي ينجذب إليها الإنسان الفلسطيني، فتصبح القدس فلسطين:-

يقتلني الشوق إلى عينيك
فأفرش بساط الريح كوفيةً من وطني الجريح
تطير بي من حائط البراق
من قيامة المسيح
تطير بي إليك (٢٦)

جاءت القدس في هاذا المقطع من خلال حائط البراق وقيامة المسيح، وقد اتحد المكان ذو الخصوصية الدينية الإسلامية مع المكان ذي الخصوصية الدينية المسيحية ليؤكد أن القدس لها مكانة دينية متميزة لدى كل من المسلمين والمسيحيين.

القدس هي البؤرة في صورة القاسم الشعرية، وتحريرها هو الذي ينشر ظلاله في عناصر الصورة، فتأتي محملّة بالتفاؤل والثقة بالمستقبل، وقد اختلفت هذه الصورة "الألوان والأصوات" لتكون مفعمة بالحيوية:-

فهل ترون
عبر كسوف الشمس
مائدة عامرة أو عرس
وامرأة تنشد
اسمي القدس (٢٧)

يوظف القاسم الموروث الديني المسيحي، فيشير إلى مائدة السيد المسيح، ويلمح المتلقي في ثنايا الصورة الشعرية، المسيح الذي يشكل المعادل الموضوعي للفدائي الفلسطيني، وينظر القاسم إلى هذه المدينة المقدّسة فيراها:-

الطفلة الحافية البيضاء
تركض فوق الماء (٢٨)

يستدعي القاسم الموروث الديني المسيحي من خلال الإشارة إلى معجزة من معجزات السيد المسيح، وهي المشي على الماء، ومن خلال هذا التواصل يربط الشاعر بين المدينة والسيد المسيح، فالقدس تستشعر القوة في داخلها، وستحقق المعجزات نتيجة عودة أبنائها من المنافي.

وفي التناصات التاريخية والتأصيل للحق التاريخي العربي في القدس، وظف الشاعر الفلسطيني سيرة الزمان في نصه الشعري بالرجوع إلى الزمن التاريخي المرتبط بأحداث فلسطينية أو عربية أو عالمية، ولم يقف عند هذا الحد، وإلاّ تحول شعره إلى وثيقة تاريخية، بل تجاوز ذلك ونظر إلى الزمن من منظور متعدد عكس كيفية إنفعاله به وطبيعة هذا الإنفعال ودرجته وحدوده، وأسقط عليه دلالات أعادت صياغته من جديد وفق رؤى وطنية وقومية وإنسانية شاملة، وبذلك ربط ربطاً محكماً بين الزمنين التاريخي والنفسي، وعمد أحياناً إلى إعادة صياغة الأول وفق خبرة الذات، وحصيلتها المعرفية الإنسانية (٢٩).

لقد جاء اهتمام القاسم في شعره في بمدينة القدس ضمن مساحة واسعة، إذ أفرد لها ثلاث قصائد جاءت الأولى بعنوان: " زنابق لمزهرية فيروز" والثانية بعنوان " فسيفساء على قبة الصخرة " والثالثة بعنوان " أخذة الأميرة يبوس " وعندما نتصفح المجموعة الكاملة تطالعنا مجموعة متنوعة من الألفاظ الدّالة على القدس تنبؤ على مدى إرتباط الشاعر بهذه المدينة المقدّسة، وتنم عن سعة ثقافته التاريخية التي حاول توظيفها في سياقات تناصيّة مختلفة.

تمثل القدس عند سميح القاسم نموذجاً للمدينة التي يمر بها الفاتحون، لكنهم سرعان ما يذهبون لتبقى هي باسمها الأصيل " يبوس " وبقبابها المذهبة ومآذنها السادرة في الزمن، تحمل بشموخها بصمات التاريخ الغابر وبأناسها الذين يضحون في سبيلها بصمات الحاضر (٣٠)

ما اسمك يا عروس؟
نسيتني؟
يبوس
ليل على القباب
مئذنة سادرة في الدهر
وامرأة بالباب
مرتابة بسائح يمر
وعسكر أغراب (٣١)

ومثل هذا السائح أو العسكري الغريب، أياً كان الأثر الذي يتركه، فلن يغير من صورة المدينة، ولا من هويتها العربية الإسلامية، فالأسوار تبقى شامخة، وكذلك الأبراج والقباب والمساجد والفاتحون - في الواقع - يحاولون إيقاع الهزيمة بالإنسان، لا بالمكان، ولّما كانت الروح لا تتزعزع، والإيمان لا يضعف ولا يفزع، فإن المدينة تستغرق على هؤلاء الغزاة، ولن يحصدوا من عدوانهم سوى الهزيمة والخيبة والتراجع.

أنا هنا
تنفس
يا حجري المقدس
يا أيها السور ويا أيتها الأبراج
لا بأس يا أسرارنا القديمة
كم فاتح حاول أن يزحزح الرتاج
ليستبيح روحنا القديمة
وعاد بالهزيمة (٣٢)

فالمدينة تستعصي على الفاتحين منذ أقدم العصور، وعلى قبابها ينشد المنشدون، وبميلادها يولدون شغفاً بالحياة والسلام، السلام الحقيقي لا السلام الذي يريده الغزاة، سلام يتفق فيه خشوع المصلين مع هيبة الإله والكائنات والنبيين والآيات البيّنة وابتداء الصراط (٣٣)

أتراها هي القدس أم مملكة الأحجيات
أم هي القدس؟ ماذا تكون
وعلى دمها ينشد المنشدون
يا حمام.... يا حمام
يا رسول السلام
وبميلادها يولدون
شغفاً بالحياة
يا حمام.... يا حمام
يا رسول السلام

والقاسم لا يعير من يسمي القدس أورشليم أو يبوس أو أورسالم أذناً مصغية، فالأسماء كلها من إيليا إلى القدس تؤدي في رأيه نتيجة واحدة، يعبر عنها بتكرار يتراكم فيه اسم القدس تراكماً دالاً، فهي السلم والحرب، والشعر والنثر، والقمح والورد، والعشب، والحلم، والرسم، وهي العسر واليسر، وهي رمز العطاء الروحي الذي لا ينقطع (٣٤)

واسمك القدس في كل حين
واسمك القدس في الحرب والسلم
والقدس في الشعر والرقص والسر والنثر
والجهر والقدس في القمح والورد والعشب
والقدس في الحقد والحب، في الحلم والرسم
والقدس في العسر واليسر والقدس
في الخير، والقدس في الشر، في البرد والحر
في وشم أبنائك الراحلين
في خلايا الجنين
في تقاطيع أحفادك الوافدين

أنت لي واسمك القدس لي، واسمك القدس
والقدس في كل حال وحين
وإلى كل حال وحين
و إلى أبد الآبدين (٣٥)

إذا كان (موتيف) القدس قد تردد في رموز الديانتين الإسلامية والمسيحية بشكل خاص، فإن كثيراً من الأدباء والشعراء ومنهم سميح القاسم من قد عاد إلى التاريخ القديم للقدس مستخدماً كلمة (يبوس) وهو الاسم الأول لمدينة القدس (منسوب إلى اليبوسيين، بناة القدس الأوائل، وهم بطن من بطون العرب القدماء) مؤكداً الامتداد التاريخي للمدينة، مما يجعل المتلقي يشعر بمكانتها وبأهميتها الروحية والقومية والوطنية، وها هو شاعرنا يصدر ديواناً مستقلاً بعنوان (أخذة الأميرة يبوس) يضم سبعة قصائد تبدأ بقصيدة (البيان قبل الأخير) عن واقع الحال مع الغزاة الذين لا يقرأون ومنهيا الديوان بالقصيدة السابقة (أخذة الاميرة يبوس) التي اتخذ منها الديوان عنواناً له، وتشمل القصيدة سبع أخذات، والأخذة لغة هو ما يحتال به في السحر، والأخيذ هو الأسير، ويقال هو أسير فتنة وأخيذ محنة، والاخيذة:-

المرأة التي تسبى في الحرب، وما أغتصب من شيء فأخذ عنوة (٣٦)

في هذه القصيدة يرد القاسم على أولئك الذين يدّعون بداية تاريخ القدس بأنها كانت في زمن الملك داوود، والشاعر هنا يلجأ إلى لغة السحر تارة وإلى اللغة الصوفية تارة أخرى، وكأنه كاهن جديد يتلاعب بالحروف القدسية، ومن هنا نجد القاسم يبدأ قصيدته بلوحة طلسمية يعبر عنها بالأشكال والرموز، يقول:-

جزعاً مسكوناً بالحمى
يرقم حيوت الأعمى
في لوح الآجر المدهون بزيت المعبد
أخذة حيوت الرائي
لأميرة مدن الدنيا ونساء الأرض، يبوس (٣٧)

الشاعر يرقم في لوح الآجر المدهون بزيت المعبد ما يتقد به من وشم وعلامات سحرية تحرس أميرة مدن الدنيا ونساء الأرض (يبوس) من غدر الغادر وطمع المحتلين، لتظل صامدةً في وجه الغزاة، رابطاً حاضرها بماضيها إذ أنها محروسة مهما استطال الشر، وعظم أمر الغزاة، حيث يخاطب الإله (آيل) المقتدر على الرغبات، بقوله:-

يا أيل المقتدر على الرغبات
يا أيل القدوس
صرف قلب يبوس
من سين الساحر
حتى سين المسحورة والمسحور والممسوس (٣٨)

ثم ينطلق الشاعر إلى طلسم الأخذة الثانية ليصل إلى الأخذة الثالثة مناشداً الربة عشتار قائلاً:

يا أيتها الربة عشتار
عاشقها الماء الأوحد
فاصلي قلب يبوس النار (٣٩)

وفي الأخذة الرابعة يكتب كاهن العشق والشوق أخذة بنت، تسمى يبوس إلى ولد رأسه طافح فوق كل الرؤوس، وفي قلبه نجمة لا تنام، إلى قوله:-

ألا وارفعي وجهها نحوه
ألا وليكن قلب هذا الفتى البدوي الأمير
ملاذ يبوس الأخير (٤٠)

وفي الأخذة الخامسة يتضرع كاهن إيل أن تذهب في التيه يبوس، لأن العاشق وحده هو المنجي والدليل، والفارس وحده يقطف هذه الوردة، ليصل بعد ذلك إلى الأخذة السادسة وفيها تجوع يبوس كثيراً، وتضيع كثيراً، ولكنها تهتدي لصدى صوت العاشق (٤١).

وفي الأخذة السادسة نجد يبوس ضائعة، ولكنها سرعان ما تهتدي بصوت العاشق، وينهي القصيدة بتلاحم عشقي بين العاشق والمعشوق إلى أبد تتبعه يقول:-

وليكن أن تضيع يبوس
كثيراً تضيع يبوس
وليكن أنها تجد القوت في بيته
وليكن تجوع يبوس
كثيراً تجوع يبوس
وليكن أنها تهتدي
بصدى صوته (٤٢)

من هنا، فإن يبوس من حق الفارس الكنعاني، إنها الوردة التي يجب أن تظل له بمباركة إيل القدوس (٤٣).

مدينة يبوس تنتظر ذلك المناضل الفلسطيني الذي سيحقق لها الحرية، فهي تراه ملتحماً بها ومعها، متشكلاً في كل جزء من أجزاء الوطن، يقول:-

على ثمر الكرم تبصر فصل فصول يديه
وفي ورق الغار تلمس آفاق عينيه
تسمعه همسةً في الهدير
وتشربه قطرة من ضياء أخير
وفي صمتها تسمعه
وفي صوتها تسمعه (٤٤)

تتغنى الأمة بفتح القدس، وتمجد انتصاراتها وفتوحاتها الماضية، ولكنها في الحاضر تعاني الضعف، والانهزامات المتوالية، يقول:-

في القلب صلاح الدين
في القلب صلاح الدين
غنينا ونغني مجد الأمجاد
والسيف النافر من كسل الأغماد
ونغني بيت المقدس ونغني حطين
وصلاح الدين
ونغني ورقاب الأكراد

بين الأنشوطة والسكين
من اسطنبول إلى بغداد
ونغني
يا ليلي يا عيني
في القلب صلاح الدين (٤٥)

وبالرغم أن بيت المقدس ذو دلالة دينية وتراثية واضحة، إلا أنه جاء في هذه القصيدة مكاناً جامداً ساكناً، ارتبط باسم صلاح الدين فقط، ولم يأتي هذا المكان إلا ليكون عاكساً للانتصارات التي حققتها الأمة العربية والإسلامية في فترة من فترات تاريخها، إن سميح القاسم يوظف شخصية صلاح الدين ومعركة حطين، ليسقط رموز الماضي على الحاضر، ويستشرف المستقبل من خلال مجموعة من الحوادث والمواقف والمقولات التاريخية، لقد استقطبت دون غيرها لا وعيه، واختارها بوعيه، فسلط عليها أدواته النفسية والفنية الكاشفة، ففجر بها الرؤية تفجيرا (٤٦).

القدس أمانة وعودة هذه الأمانة إلى أهلها مرهونة بالوحدة، تلك الوحدة ستكون حلاً لقضية فلسطين عامة والقدس خاصة، ويولد الثائر العربي الذي جمع ملامحه وتاريخه وشخصيته من خريطة الوطن العربي ليكون المخلص والحامي لمدينة القدس.

انتظر الثقفي
ذات صباح غامض سألته رابعة العدوية
هل يولد؟ هل يولد؟
يولد في دمشق
مكللاً بالبرق
يولد في الجزائر
يولد في الكنانة
ويرجع الأمانة
ثائرة وثائر
وطفلة جميلة
تلعب تحت الشمس
لو سألت عن اسمها
ردت أنا اسمي القدس
وردت اسمي القدس (٤٧)

اختار القاسم شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي لتكون معادلاً موضوعياً للثائر العربي الذي سيعيد القدس إلى الأمة العربية، وكأن القاسم في هذا المقطع يتمنى لو يوجد هذا الثقفي.

القدس فرحة، مستبشرة بالمستقبل، مؤمنة بالنصر، موقنة بوجود الفدائي المخلص، الذي يعمل جاهداً على فك أسرها

أيتها القناطر
لا تسدلي الستارة
عدت من المهاجر
عدت من الذاكرة المنهارة
بكل ما في الروح من شعائر (٤٨)

حملت القناطر هذا المقطع وجهاً من وجوه مدينة القدس، وقد جاءت لتعبر عن تلك الخصوصية المكانية التي تمتاز بها هذه المدينة، فقناطرها محببة إلى النفوس تعبق منها رائحة التاريخ والتراث والأصالة، رائحة الوطن المميزة "إن جمالية الحنين إلى المكان، هي جمالية استعارة الذات والهوية ومعنى الانتماء" (٤٩)

لقد وفق القاسم في الجمع بين المكانين القناطر والمهاجر، فقوة المكان الأول وصموده في وجه التحديات قد أضعف المكان الآخر (المهاجر) لذا سيبقى الوطن، ولن يكون المنفى وجهاً آخر له.

يقول سميح القاسم:-

زجرت
وما ازدجر
يا سيدي عمر (٥٠)

في هذا المقطع الشعري استطاع الشاعر أن يوازن بين حالة القدس في عهودها الزاهرة، وبين حالتها اليوم، وقد كانت البؤرة التي انطلق منها الشاعر لهذه الموازنة، هي الموروث التاريخي الذي أصبح ضرباً من الرؤية الفنية، يقوم به الحس التراثي مقام الرصد التاريخي، ويتجلى منه ما كان بمثابة نبوءة أو حدس بما يكون، كما يتجلى فيه ما يكون بمثابة تأويل إبداعي لما كان، ومن ثم يغدو التفاعل الخلاق بين الماضي والحاضر بديلاً للمواجهة بينهما (٥١) فقد استدعى القاسم الشخصية الذاتية التراثية (عمر بن الخطاب) ليكشف الواقع المأساوي الذي تحياه مدينة القدس نتيجة للاحتلال وليدين ضعف الأمة العربية وعجزها واستكانتها أمام العدو الصهيوني.

يتداخل الجليل والكرمل مع القدس، فيتشكل الوطن فلسطين، فتذوب الحدود والحواجز بين شمال الوطن وجنوبه، بين فلسطين الداخل والضفة وغزة، وتتأجج مشاعر الغضب والثورة في نفوس المناضلين لحال المدن الفلسطينية المنكوبة، فيكون الوعد بالعودة إلى أرض الوطن، والنضال من أجل الحرية

ويرى الكرمل الملوع سلمى والجليل المذبوح في القيد سلمى
وقباب القدس الاسيرة سلمى وأساطير وردة الدم سلمى (٥٢)

يتمدد المكان الفلسطيني المقدّس (القدس) ليصبح وجهاً للوطن، ويشخص القاسم قباب القدس فيراها أسيرة، وذلك لتتحرك مشاعر المناضلين الفلسطينيين، وقد جاءت الرموز واضحة مباشرة، ولعل التركيز على رمز سلمى الدال على فلسطين ليشير من خلاله إلى تلك الشخصية التي يتحدث عنها واثباتها وكأن العودة هاجس يسيطر على الشاعر ويتمنى لو يتحقق.

يولد الإنسان الفلسطيني من جديد بفعل الحب والانتماء لهذا الوطن، ومن مدينة القدس يستعيد الفلسطيني ذكريات الوطن الجريح والهجمة الشرسة عليه من قبل العدو الصهيوني

هللي معنا لملك الحب
لك المجد.... المجد لك
أيها الحي الباقي
بارك قيامتنا، بارك وجدنا المقيم كروحك
خذ بأيدينا المشتعلة بالحياة
لنشهد ميلادنا، من مآذن القدس وجرسياتها
وفي أعالي صبانا الزاخر بك
نستعيد الذكريات على ضفاف دجلة

أيتها المتبددة في زحام الأرض
لماذا كنت بعد كل هذا العدم (٥٣)

لقد وفق القاسم في اختيار لفظة المئذنة، فهي مكان علوي رأسي، ودلالتها الروحية تفوق أي اعتبار آخر (٥٤) وكذلك لفظة (جرسيات) فهي طافحة بالدلالات الروحية، وذلك ليستمد المناضل من هذه الأماكن الدينية القوة، ولتمنحه الإيمان بأن هذا الوضع المأساوي في فلسطين لن يدوم.

لاحظ وجود القوة المدمرة، قوة التتار، خلف عبارة (ضفاف دجلة)، ولعلّ الشاعر قد وفق في هذا التكثيف الشعري، فمن خلال هذه العبارة، يستحضر المتلقي الهجمة الشرسة للتتار على مدينة بغداد، وتكون صورة العدو الصهيوني في فلسطين صورة ممتدة لها.

وتمتد ريشة القاسم الفنية إلى التراث الأدبي، إذ يشكل له هذا التراث أهمية خاصة، وتواصله بهذا التراث يتم بشكل انتقائي على مستوى الشخوص والأحداث وعلى مستوى الكلمة والعبارة، اقتباساً وتضميناً أو انتفاعاً أو تناصاً.

يستحضر سميح القاسم شخصية الشنفرى في قصيدته (انتقام الشنفرى)، وينشغل بالرمز في هذه الشخصية، لما تمثله من مقاومة في وجه الظلم، ومن تمرد ورفض لهذا الظلم الاجتماعي والإنساني.

تقمص سميح القاسم شخصية الشنفرى، وفتح لها المجال لتتحدث من جديد بلغة جديدة، ولم يكتف بهذا الرمز التراثي، بل اتخذ حياته وروحه وألمه وغضبه وثأره وظلمه عموداً فقرياً لعمله الجديد، بعد أن تمثله وأدخله العصر الحديث (٥٥)

هذا الواقع الظالم يرفضه الشنفرى، ويتمرد عليه، فيتحرك إلى موقع جديد، ينطلق منه ويقاوم

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني إلى قوم سواكم لأميل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل (٥٦)

أما الشنفرى الجديد، فيصبح خطابه خطاب الشعب ذاته

ويوماً بذات الجليل
ويوماً بذات الخليل
ويوماً بيافا وحيفا
وبيروت، باريس، عمان، روما
وللشمس أمر
وللقدس دهر
يحاذر حيناً وحيناً يجاهر (٥٧)

لعل عملية التطوير التي يمارسها القاسم لشخصية الشنفرى في زمانها القديم والجديد، والحاضر والمستقبل الآتي، وفي مكانها القديم الجديد، وفي لغة الإنسان المتمرد الرافض، تجعلنا نعيش أجواء الماضي والحاضر في آن دون حواجز زمنية، ودون بتر للمعنى، وبخاصة في تلاوة الأناشيد المتقاسمة المشتركة، ألم يقل أمرؤ القيس (اليوم خمر وغداً أمر)؟

تظهر القدس مكانا محرضاً يدعو أبناءه لاتخاذ موقف حاسم تجاه أعداءه، الأمر الذي جعل القاسم يتماهى مع شخصية الشنفرى، فقد جعل منها رمزاً معادلاً للإنسان الفلسطيني بمعاناته

وأشواقه ومواقف العالم منه، ولعل التمرد والثورة هما أهم الملامح المشتركة بين الشنفرى والشعب الفلسطيني، وقد وفق القاسم في قناعه، فلا يلمح المتلقي سوى الشنفرى الجاهلي ولغته البدوية الجزلة في ألفاظها.

ومن مدينة القدس، ومن ساحة الأقصى المبارك، ستنطلق كلمة السر، ستشتعل الثورة، وسيسقط الشهداء دفاعاً عن هذه المدينة وعن هذا الوطن، وستفتح فلسطين أبوابها المغلقة لشعبها، يقول سميح القاسم:-

باب المغارة موصد دوني
سقوط نيازكي في ساحة الأقصى المبارك
كلمة السر الأخيرة
.....
خفق الريح في الزيتون والسريس
كان نشيدي القومي من أزل
إلى أبد يظل نشيدي القومي
آبائي البيادر
والمعاصر
والقناطر (٥٨)

القدس مدينة الحرية، تحمي أبنائها، وتحضن آمالهم وأحلامهم في العودة إليها، والعيش على أرضها وفي ظلها، وباحتلالها يفقد الإنسان الفلسطيني كيانه ووجوده على هذه الأرض، ويسقط الحلم بالعودة، وتنطفئ الآمال:-

يقبل سيدنا الراحل
لمقدمة الصلوات عليه السلام
على شفتيه المعاني التي لم يقلها الكلام
نقوش لشهيدة القبر، كانت يبوس ملاذ
اليبوسي حياً وميتاً
قضى نحبه، لا نقوش لشاهدة القبر، لا قبر
ما من يبوس
ودائما تراب التراب وشمس الشموس
وما من فضاء جديد وما نبي جديد
وما من طريق
وما من يبوس (٥٩)

يستشعر الباحث اليأس الذي أثقل هذا المقطع الشعري لإثارة المتلقي وتحفيزه على رفض الواقع المرير لمدينة القدس، ولعلّ القاسم أنطق الصغار ليشير إلى أن الجميل الجديد هو الأمل وهو الخلاص بإعادة هذا الوطن السليب إلى أهله.

وظف القاسم أسطورة العنقاء ليشير بها إلى مرحلة التجدد والبعث في حياة الفلسطيني، فهو لن يهزم ولن يموت، وإنمّا سيبعث من جديد ليعيد الوطن إلى أهله.

وباي ميعاد تفجر لحظة الزلزال في الزمن الضنين
من اين أبتدأ الحياة لقهر موت يتدعيني
شيدت عاصمة لروحي، خلف سور القدس عاصمة تليق بمكة

الأولى، فرشت عباءتي سجيت فيها جثتي، يا قوم كفوا عن
خصامكم القديم، وهاكم جسدي الجديد، ألا احملوه جماعة
ليكون باسم الله صخرة حلمنا الباقي على الأيام واتعظوا بما
قالت لنا
العنقاء من أزل، ألا واستذكروا آلام أهل الكهف يا أهل الأحبة (٦٠)

مدينة القدس حق إسلامي وعربي وفلسطيني، إنها الوردة التي يجب أن تظل بمباركة الإله إيل المقدّس:-

يتضرع كاهن إيل
أن تذهب في التيه يبوس
وتطلب في الناس دليلاً
يتضرع كاهن إيل
أن العاشق وحده
منحى....منحى....ودليل
والفارس وحده
يقطف هذه الوردة (٦١)

ولعلّ هذا المقطع يعكس الرؤية الواعية لسميح القاسم، فهو يشعر بالانهزام أمام واقع هذه المدينة المتردي، ومحاولات العدو الصهيوني المتكررة في الاستيلاء عليها، بل ومحاولة تهويدها، وحتى يشعر بالتوازن والقدرة على مواجهة ذلك الواقع الأليم لا يوجد حلاً سوى ربط مصير القدس بالفلسطيني، فهو الوحيد القادر على تخليصها مما تعانيه.

لقد وظف سميح القاسم أسطورة الإله (إيل) توظيفاً مباشراً، إله الأنهار والينابيع، وما ينتج عنها من خطب، وهو أبو الأرباب وأبو البشر (٦٢)، يقول:-

يا إيل المقتدر على الرغبات
أسكب صيهد بيدك في رحم يبوس
فلا يذهب شهوتها ماء
غير النهر القادم
من سين السر إلى حاء الحب
يا رب
يا رب الأشياء جميعها
يا إيل المقتدر على الرغبات
مر ولبان وبخور
وحدائق نور يا إيل القدوس
صرف قلب يبوس
من سين الساحر
حتى سين المسحورة والمسحور (٦٣)

فالشاعر في هذه القصيدة يتناص أسلوبياً مع التراتيل الدينية التي كان يطلقها الإنسان من أجل الخصب وتقدم القرابين للآلهة، والشاعر هنا لجأ إلى الإله (إيل) وذلك لعلاقته الحميمة التي تربطه بالشعب الفلسطيني بصفته أحد آلهة الكنعانيين، و(إيل) هنا رمز للفلسطيني الفدائي المخلص القادر على فك حصار يبوس (القدس) وابعاد الاحتلال عنها، وإعادة الخصب والنماء والحياة إلى المدينة.

أما بعل فهو من الآلهة الكنعانية التي وظفها القاسم في أشعاره، وهو رب الخصب والإنبات، وهو في صراع دائم مع عدو الموت، وكلمة (بعل) اعادة تعني (السيد) فقد كانت تطلقها الشعوب السامية على أربابها المحليين كآلهة وكأسياد وحاكمين، أو السيدة الحاكمة (بعليت) في حالة الربة الأنثى، وكان بعل شقيق أنات وزوجها، وقد وظف القاسم الإله (بعل) في قصيدته (فسيفساء على قبة الصخرة) إذ يقول:-

أنا سليل اللات
أبي الإله بعل
عمدت في النيل وفي الأردن والفرات
أنا سليل اللات
أمشي، وخلفي الشمس
إلى رحاب القدس
أمشي، وظلي الليل (٦٤)

ففي بداية هذه الأسطر الشعرية، استخدم الشاعر ضمير (أنا) الذي يعبر عن الخصوصية والتوكيد، فهو من سلالة (اللات) أي أصوله عربية، وذلك لأن العرب عبدت (اللات) ثم يبين أن (بعل) والده، وفي ذلك تأكيد على عروبة فلسطين، وهذا لأن الإله (بعل) هو إله كنعاني، فمن خلال استحضاره هذه الآلهة، يؤكد الشاعر أن فلسطين أرض كنعانية عربية، لا حق لليهود فيها، وذلك من خلال استحضار الإله (بعل) الكنعاني.

أما ما يسمى (حارة اليهود) في مدينة يبوس، هذه المدينة العريقة في تاريخها الكنعاني الممتدة بجذورها في أعماق الحضارة البشرية، يصرّ العدو الصهيوني على ادعاءاته بأحقيته فيها، ويرجع هذا الحق إلى وجوده في هذه المدينة في مرحلة من تاريخه، لقد استطاع العدو أن يغرس في جسد يبوس ذلك المسمار الذي يثبت فيه وجوده تاريخياً في هذه

المدينة، فمسماره هو حارة اليهود أو (حارة الشرف) كما يسميها المقدسيون (٦٥)

رأيت مسمار جحا
مفقود موجود
رأيت مسمار جحا
موجود مفقود
رأيت مسمار جحا
في حارة اليهود (٦٦)

جاءت القدس في هذا المقطع من خلال (حارة اليهود) ومن خلال هذا المكان أظهر القاسم الوجود اليهودي في هذه المدينة العربية، وهذا الوجود الذي بدأ يتغلغل في جسد هذه المدينة ساعياً إلى إلغاء هويتها العربية، وقد وظف القاسم العبارة الشعبية (مسمار جحا) معتمداً على الخلفية التراثية لإحدى حكايات جحا، ليؤكد بطلان وجود الكيان الصهيوني في هذه البقعة المقدّسة، ولعل تكرار عبارة (رأيت مسمار جحا) ثلاث مرات لتنبيه الأمة العربية إلى الخطر الحقيقي الذي يهدد المدن الفلسطينية، وتأكيداً على بطلان الادعاءات الصهيونية وزيفها (٦٧).

□

خاتمة

يوفر تصوير القدس وقضيتها الثقافية مادة خصبة في الأدب الفلسطيني والعربي المعاصر، والأدباء بذلك يضعون المدينة في دائرة الضوء في مواجهة ما تعانيه هذه الأيام من الاحتلال والإغلاق والتهويد. وهذا يكشف عن خطورة ما تتعرض له مدينة القدس من التهويد واستمرار الاحتلال، وفي ذات الوقت يكشف الرموز الحقيقية لما تمثله القدس من تاريخ وشموخ وعنوان وحياة لشعبنا الفلسطيني والعربي.

وهكذا أكدت هذه الدراسة أن القدس لم ولن تغيب عن بال أي شاعر يحمل همّ القضية على عاتقه وفي وجدانه، ومنهم شاعرنا سميح القاسم الذي أدرك أن الحرب مع الأعداء هي حرب تاريخية من خلال محاولة كل طرف إثبات أحقيته في الأرض وعلى الأرض، وأسبقيته في الوجود عليها، فقد أشعرنا بأن المكان (مدينة القدس) قد ذاب في دم النص وتحوّل إلى مخلوق جديد يحمل صفات جديدة من خلال استلهام الموروث الديني والتاريخي والأدبي والأسطوري والشعبي.

وهكذا كانت القدس حاضرة دينياً وتاريخياً وأدبياً وأسطورياً وشعبياً، فأضفى حضورها على النص رونقاً جديداً ومذاقاً جديداً ولوناً جديداً، جعل القدس هي البؤرة وهي نقطة الالتقاء لما تحمله من دلالات وأبعاد مختلفة.

إن القدس في حضورها التاريخي والديني والأدبي والأسطوري والشعبي جسدت صورة المكان المشكل للتجربة الكلية للشاعر، سيما أن المكان ماضياً وحاضراً أبرز محاور الصراع، وقد مثلت القدس جزءاً حياً من التجربة وتركز وجودها في قصائد الشاعر، فإذا كانت القدس وفقاً للتاريخ فقدت شعباً، فهي كذلك في الحاضر، وإذا كانت بابل عبر عصور التاريخ مكاناً للتهجير، فهي اليوم كذلك، ولكن أطفال بابل ليسوا يهود العصور الخالية، بل هم الفلسطينيون المحدثون، والقدس تحتفل بعودتهم انطلاقاً من الحاضر في نظرة إلى المستقبل.

إن حضور القدس في الكتابة الشعرية التناصية عند سميح القاسم يعكس عذابات الشاعر وتجاربه التي تحمله على الاغتراب عن تاريخه، وهذا لا يعني رفض جذوره بقدر ما هو بحث عن تلك الجذور، فالتناص يقيم حواراً بين الأزمنة التي يتجلى الوطن من خلالها، وهكذا فالقدس ستسهم في تشكيل المكان في الذاكرة تشكيلاً يأخذ من الجماليات والحقائق ويمنح من الشعور واللاشعور وهذا ما يكسب الزمكانية الحقيقة أصالة تاريخية.

لم يأت التناص وارتباطه بمدينة القدس لدواع جرسية فقط، وإنما لإخراج الراهن ووضعه في دراما تاريخية، أي جعل النص يعمل في التاريخ أو في الماضي، ويعمل في اللحظة نفسها على مستوى زمنيين مختلفين. والإشارات التاريخية تضع النص في زمن آخر في الماضي الذي يحمي من السقوط في المباشرة، والتراث (التناص) هو الزمن الأكثر صلابة الذي يفتح على المستقبل.

هوامش البحث:

١- ابراهيم نمر موسى، صورة القدس الشريف في الشعر الفلسطيني المعاصر، مؤتمر (حضور القدس في المشهد الأدبي الفلسطيني المعاصر) – جامعة القدس المفتوحة، رام الله فلسطين، ٢٠٠٩، ص٩
٢- نفسه، ص١٠
٣- القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية رقم ١
٤- صورة القدس الشريف في الشعر الفلسطيني المعاصر، سابق، ص١٢- ١٣
٥- سميح القاسم، القصائد، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١، ط١، ص٤٠٣- ٤٠٤
٦- نفسه، ص ٤٣٣

٧- صورة القدس الشريف في الشعر الفلسطيني المعاصر، سابق، ص٤١- ٤٢
٨- نفسه، ص٤٢
٩- جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ط١، ص١٩٧
١٠- القصائد، سابق، ص٤٣٣
١١- سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٤، ط١، ص١٨١
١٢- نفسه، ص١٤٥
١٣- نفسه، ص٣٢
١٤- جلال عيد وزهير إبراهيم، القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، مؤتمر: حضور القدس في المشهد الأدبي الفلسطيني المعاصر، جامعة القدس المفتوحة رام الله، فلسطين، ٢٠٠٩، ص١٧٠
١٥- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ص٣٥
١٦- نفسه، ص٣٥
١٧- عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٩، ط١، ص١٠
١٨- القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، سابق، ص١٧٠- ١٧١
١٩- كاظم الراوي، أساليب القسم في اللغة العربية، بغداد، ١٩٧٧، ط١، ص٣٠
٢٠- صورة القدس الشريف في الشعر الفلسطيني المعاصر، سابق، ص٣١- ٣٢
٢١- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ص٣٢
٢٢- رقية زيدان، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠١، ص١٠
٢٣- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ص ١٤٨
٢٤- نفسه، ص٢٨٧
٢٥- نفسه، ص٤١٨
٢٦- نفسه، سأخرج من صورتي ذات يوم، ص١٨
٢٧- نفسه، ص٣٣٥- ٣٣٦
٢٨- نفسه، ص١٤٤
٢٩- إبراهيم نمرموسى، آفاق الرؤيا الشعرية، وزارة الثقافة الفلسطينية، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة القراءة للجميع، ٢٠٠٥، ط١، ص٢٠١
٣٠- إبراهيم خليل، من أدب البلدان في القدس وعمّان، المكتبة الوطنية، الأردن، عمّان، ٢٠٠٩، ط١، ص٢٠
٣١- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ص٢٠٩
٣٢- نفسه، ٢١٠/١
٣٣- من أدب البلدان في القدس وعمان، سابق، ص٢٢
٣٤- نفسه، ص٢٢
٣٥- جريدة الدستور الأردنية، الدستور الثقافي، عمان، عدد ١٤٩٨٤، س٤٣، ٢٠٠٩، ص٧
٣٦- ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١٩٦٤، مادة أخذ
٣٧- سميح القاسم، أخذة الأميرة يبوس، دار النورس للصحافة والنشر، القدس، ١٩٩٠، ط١، ص٦٥
٣٨- نفسه، ص٦٥
٣٩- نفسه، ص٦٧
٤٠- نفسه، ص٦٨
٤١- القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، سابق، ص١٧٦- ١٧٧
٤٢- أخذة الأميرة يبوس، سابق، ص٦٩
٤٣- نفسه، ص٦٩
٤٤- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ٣٩٢/٣
٤٥- نفسه، ص١٨٥
٤٦- عبد الله الخناص، القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن في القرن العشرين من عام ١٩٠٠- ١٩٤٨، الأردن، عمان، ١٩٩٥، ط١، ص١٣٥
٤٧- الأعمال الشعرية الكاملة – كولاج، ص٤٠- ٤١
٤٨- نفسه، ١٤٤/٣
٤٩- يمنى العيد، جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة، مجلة الآداب، ع ٩- ١٠، ١٩٩٧، ص٨١
٥٠- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ١٤٥/٣
٥١- محمد فتوح أحمد، واقع القصيدة العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ط١، ص١٤٧- ١٤٨

٥٢- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ٢٦٠/٢
٥٣- نفسه، ٢٨١/٢
٥٤- مختار أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة، الفنون والأدب، الاسكندرية، ١٩٩٧، ط١، ص٤٠- ٤١
٥٥- شوقي أبو زيد، التواصل بالتراث في أعمال سميح القاسم الأدبية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢، ص١٥٥-١٥٦
٥٦- الشنفرى، لامية العرب، شرح وتحقيق، محمد بديع شريف، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤، ط١، ص٢٧- ٢٨
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة، انتقام الشنفرى، سابق، ص١٢
٥٨- نفسه، ١١٢/٣ – ١١٣
٥٩- نفسه، ٢٤٥/٤
٦٠- نفسه، سأخرج من صورتي ذات يوم، ص١٦١
٦١- نفسه، ٣٩٠١٣
٦٢- ماكس شبيرو، معجم الأساطير، ترجمة حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩، ط١، ص٩٢
٦٣- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ص٥٩٠- ٥٩١
٦٤- نفسه، ص٢١٨
٦٥- القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، سابق، ص١٧٨- ١٧٩
٦٦- الأعمال الشعرية الكاملة، سابق، ١٤٥/٣
٦٧- القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، سابق، ص١٧٨- ١٧٩

المراجع

القرآن الكريم
١- أحمد، محمد فتوح، واقع القصيدة العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ط١، ص١٤٨
٢- الأسطة، عادل، القدس في الشعر العربي المعاصر، مجلة الشعراء، ع ٢٢، ٢٠٠٣
٣- أنيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١٩٦٤
٤- الخباص، عبد الله، القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن في القرن العشرين من عام ١٩٠٠-١٩٤٨، الأردن، عمّان، ط١، ١٩٩٥
٥- الخطيب، أحمد، ظواهر حديثة في شعر المقاومة، منشورات الهيئة الإدارية للاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين، السعودية، ١٩٩٦
٦- خليل، إبراهيم، من أدب البلدان في القدس وعمّان، المكتبة الوطنية، الأردن، عمّان، ط١، ٢٠٠٩
٧- الراوي، كاظم، أساليب القسم في اللغة العربية، بغداد، ط١، ١٩٧٧
٨- زيدان، رقية،، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠١
٩- أبو زيد، شوقي، التواصل بالتراث في أعمال سميح القاسم الأدبية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢
١٠- شبيرو، ماكس، معجم الأساطير، ترجمة حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩
١١- شعث، أحمد جبر، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، خان يونس – غزة، ط١، ٢٠٠٢
١٢- الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، لامية العرب، شرح وتحقيق محمد بديع شريف، مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٤
١٣- العارف، عارف، المفصّل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط١، ١٩٩٥
١٤- عيد، جلال، وزهير إبراهيم، القدس من حيث الألفاظ الدالة عليها في شعر سميح القاسم، مؤتمر – القدس في المشهد الأدبي الفلسطيني المعاصر، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠٠٩
١٥- العيد، يمنى، جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة، مجلة الآداب، ع ٩- ١٠، ١٩٩٧
١٦- أبو غالي، مختار،، المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة، الفنون والأدب، الاسكندرية، ط١، ١٩٩٧
١٧- فتح الباب، حسن، سمات الحداثة في الشعر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٨٩
١٨- القاسم، سميح، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، ط١، بيروت، ٢٠٠٤

١٩- القاسم، سميح، القصائد، دار الهدى، كفر قرع، ط١، ١٩٩١
٢٠- القاسم، سميح، أخذة الأميرة يبوس، دار النورس للصحافة والنشر، القدس، ط١، ١٩٩٠
٢١- القاسم، سميح، كولاج، دار الحوار، اللاذقية، ط٢، ١٩٨٤
٢٢- -القاسم، سميح، سأخرج من صورتي ذات يوم، مؤسسة الأسوار، عكا، ط١،٢٠٠٠
٢٣- الكركي، خالد، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٩
٢٤- كوهين، جان، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦
٢٥- المسيري، عبد الوهاب، اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩٩
٢٦- المجالي، محمد، المدن المقاتلة في الشعر الحديث، (القدس، بيروت، البصرة) رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩
٢٧- موسى، إبراهيم نمر، آفاق الرؤية الشعرية، وزارة الثقافة الفلسطينية، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة القراءة للجميع، ط١، ٢٠٠٥
٢٨- موسى، إبراهيم نمر، صورة القدس الشريف في الشعر الفلسطيني المعاصر، مؤتمر – حضور القدس في المشهد الأدبي الفلسطيني المعاصر، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، ٢٠٠٩

****